٧ ـ راحيل امرأة يعقوب عليه السلام

أية مكرمة أصابتها هذه المرأة الفريدة «راحيل» حين أصبحت زوج نبي عظيم؟ وأي شرف بلغته يوم غدت أماً لنبي كريم؟ فمن هي تلك المرأة؟ وكيف أدركت ذلك المجد المؤثَّل الذي سبقتها إليه «سارة» زوج «إبراهيم الخليل» وأم «إسحاق بن إبراهيم» عليه السلام. و«هاجَر» زوج «إبراهيم الخليل» وأم «إسماعيل بن إبراهيم» عليه السلام. و«رفقا بنت بتويل» زوج «إسحاق بن إبراهيم» وأم «يعقوب بن إسحاق» عليه السلام.

وقد ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه: عن ابن إسحاق، قال: نكح «إسحاق بن إبراهيم»، «رفقا بنت بتويل بن إلياس» فولدت له «عيص بن إسحاق» و«يعقوب بن إسحاق» يزعمون أنهما كانت توأمين، وأن «عيصاً» كان أكبرهما، ثم نكح «عيص بن إسحاق» ابنة عمه «بسمة ابْنَة إسماعيل بن إبراهيم» فولدت له «الروم بن عيص» فكل بني الأصغر من ولده.

قال: وبعض الناس يزعم أن الأشبان من ولده، ولا أدري أمن ابنة «إسماعيل» أم لا؟

ونكح «يعقوب بن إسحاق» ـ وهو إسرائيل ـ ابنة خاله «لَيَّا ابْنَة لبان بن بتويل بن إلياس» فولدت له و«روبيل بن يعقوب» وكان أكبر ولده، و«شمعون بن يعقوب» و«لاوي بن يعقوب» و«يهوذا بن يعقوب» و«زبالون بن يعقوب» و«يسحر بن يعقوب» و«دينة ابْنَة يعقوب».

وقد قيل في «يسحر»: إن اسمه «يشحر»، ثم توفيت «ليا بنت لبان» فخلف «يعقوب» على أختها «راحيل بنت لبان بن بتويل بن إلياس»، فولدت له «يوسف بن يعقوب» و«بنيامين بن يعقوب» ـ وهو بالعربية شداد ـ وولد له من سُرِّيَّتَيْن: اسم إحداهما «زلفة» واسم الأخرى «بلهة»، أربعة نفر: «دان بن يعقوب» و«نفثالي بن يعقوب» و«جاد بن يعقوب» و«أشر بن يعقوب»، فكان بنو «يعقوب» اثنى عشر رجلاً.

وقد قال بعض أهل التوراة: إن «رفقا» زوجة «إسحاق» هي ابنة «ناهر بن آزر» عم «إسحاق»، وإنها ولدت له ابنيه «عيصاً» و«يعقوب» في بطن واحد، وإن «إسحاق» أمر ابنه «يعقوب» ألَّا ينكح امرأة من الكنعانيين، وأمره أن ينكح امرأة من بنات خاله «لبان بن ناهر»، وأن «يعقوب» لما أراد النكاح، مضى إلى خاله «لبان بن ناهر» خاطباً فأدركه الليل في بعض الطريق، فبات متوسداً حجراً، فرأى فيما يرى النائم أن سلماً منصوباً إلى باب من أبواب السماء عند رأسه، والملائكة تنزل وتعرج فيه، وأن «يعقوب» صار إلى خاله، فخطب إليه ابنته «راحيل»، وكانت له ابنتان: «ليا» وهي الكبرى، و«راحيل» وهي الصغرى، فقال له: هل من مال أزوجك عليه؟ فقال «يعقوب»: لا، إلَّا أني أخدُمك أجيراً حتى تستوفي صَدَاق ابنتك، قال: فإن صَدَاقها أن تخدمني سبع حجج، قال «يعقوب»: فزوِّجْني «راحيل» وهي شرطي، ولها أخدُمك. فقال له خاله: ذلك بيني وبينك، فرعى له «يعقوب» سبع سنين، فلما وفَّى له شرطه، دفع إليه ابنته الكبرى «ليا»، وأدخلها عليه ليلاً، فلما أصبح وجد غير ما شرط، فجاءه «يعقوب» وهو في نادي قومه، فقال له: غررتني وخدعتني، واستحللت عملي سبع سنين، ودلَّسْتَ عليَّ غير امرأتي، فقال له خاله: يابن أختي! أردت أن تدخل على خالك العار والمسبة، وهو خالك ووالدك؟ ومتى رأيت الناس يزوجون الصغرى قبل الكبرى؟ فهلُمَّ فاخدمني سبع حجج أُخرى، فأزوجك أختها ـ وكان الناس يومئذ يجمعون بين الأختين إلى أن بعث «موسى» عليه السلام ـ وأنزل عليه التوراة ـ فرعى له سبعاً، فدفع إليه «راحيل»، فولدت له «ليا» أربعة أسباط: «روبيل» و«يهوذا» و«شمعان» و«لاوي».

وولدت له «راحيل»، «يوسف وأخاه بنيامين» وأخوات لهما، وكان «لبان» دفع إلى ابنتيه حين جهزهما إلى «يعقوب» أَمَتَيْن، فوهبتا الأَمَتَيْن إلى «يعقوب»، فولدت كل واحدة منهما له ثلاثة رهط من الأسباط، وفارق «يعقوب» خاله، وعاد حتى نازل أخاه «عيصاً».

وقال بعضهم: ولد يعقوب «دان» و«نفثالي» من «زلفة» جارية «راحيل»، وذلك أنها وهبتها له، وسألته أن يطلب منها الولد حين تأخر الولد عنها، وأن «ليا» وهبت جاريتها «بلهة» ليعقوب، منافسة لراحيل في جاريتها، وسألته أن

يطلب منها الولد، فولدت له «جاد» و«أشير»، ثم ولد له من «راحيل» بعد اليأس «يوسف» و«بنيامين»، فانصرف «يعقوب» بولده هؤلاء، وامرأتيه المذكورتين إلى منزل أبيه من فلسطين على خوف شديد من أخيه «العيص»، فلم ير منه إلا خيراً.

وكان «العيص» فيما ذكر لحق بعمه «إسماعيل»، فتزوج إليه ابنته «بسمة» وحملها إلى الشام، فولدت له عدة أولاد فكثروا حتى غلبوا الكنعانيين بالشام، وصاروا إلى البحر وناحية الإسكندرية، ثم إلى الروم، وكان «العيص» فيما ذكر يسمَّى «آدم» لأدْمته.

قال: ولذلك سُمِّي ولدُه وَلَدَ الأصغر، وكانت ولادة «رفقا بنت بتويل» لإسحاق بن إبراهيم ابنيه «العيص» و«يعقوب» ـ بعد أن خلا من عمر «إسحاق» ستون سنة ـ توأمين في بطن واحد، و«العيص» المتقدم منهما خروجاً من بطن أمه، فكان «إسحاق» فيما ذكر يختص «العيص». وكانت «رفقا» أمهما تميل إلى «يعقوب»، فزعموا أن «يعقوب» ختل «العيص» في قربان قرَّباه بأمر أبيهما «إسحاق» بعدما كبرت سن «إسحاق»، وضعف بصره، فصار أكثر دعاء «إسحاق» ليعقوب، وتوجهت البركة نحوه بدعاء أبيه «إسحاق» له، فغاظ ذلك «العيص» وتوعَّده بالقتل، فخرج «يعقوب» هارباً منه إلى خاله «لبان» ببابل، فوصله «لبان» وزوَّجه ابنتيه «ليا» و«راحيل»، وانصرف بهما وبجاريتيهما وأولاده الأسباط الاثني عشر، وأختهم «دينة» إلى الشام إلى منزل آبائه، وتألف أخاه «العيص» حتى نزل له البلاد وتنقل في الشام، حتى صار إلى السواحل، ثم عبر إلى الروم فأوطنها ـ اتخذها وطناً ـ، وصار الملوك من ولده وهم اليونانية، فيما زعم هذا القائل[1].

إن الحسد آفة كبرى وداء وبيل زرعه في الأرض «إبليس» ـ عليه لَعَنَاتُ ربي وغضبه ولَعَنَاتُ الملائكة والناس أجمعين منذ بدء الخليقة إلى يوم الدين ـ، وذلك حين أمره رب العزة بالسجود لآدم عليه السلام فأبى واستكبر حسداً وحقداً وحباً بمعصية رب العالمين.

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣١٧ ـ ٣١٩).

وما قَتَلَ «قابيل بن آدم» أخاه «هابيل» إلَّا حسداً له، وحقداً عليه، وكذلك الحال، حيث حسد «العيص بن إسحاق» أخاه «يعقوب بن إسحاق» لما رأى من حب «إسحاق» لأخيه «يعقوب» وإكثاره من الدعاء له مما أجَّج نار الغيرة في صدره، وسَعَّر ضِرام الحسد إلى حد تهديد «العيص» بقتل «يعقوب» عليه السلام.

وقد روى ابن جرير الطبري في تاريخه: حدثنا الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي، قال: حدثنا أبي، قال: أخبرنا أسباط، عن السدي، قال: تزوج «إسحاق» امرأة فحملت بغلامين في بطن، فلما أرادت أن تضعهما، اقتتل الغلامان في بطنها، فأراد «يعقوب» أن يخرج قبل «عيص»، فقال «عيص»: والله! لئن خرجت قبلي لأعترضَنَّ في بطن أمي ولأقتلنَّهَا، فتأخر «يعقوب»، وخرج «عيص» قبله، وأخذ «يعقوب» بعقب «عيص»، فخرج فسُمِّيَ «عيصاً» لأنه عصى فخرج قبل «يعقوب»، وسُمِّيَ «يعقوب» لأنه خرج آخذاً بعقب «عيص»، وكان «يعقوب» أكبرهما في البطن، ولكنَّ «عيصاً» خرج قبله، وكبر الغلامان، فكان «عيص» أحبهما إلى أبيه، وكان «يعقوب» أحبهما إلى أمه، وكان «عيص» صاحب صيد.

فلما كبر «إسحاق» وعَمِيَ، قال لعيص: يا بني! أطعمني لحم صيد، واقترب مني أَدْعُ لك بدعاء دعا لي به أبي، وكان «عيص» رجلاً أشعر، وكان «يعقوب» رجلاً أجرد، فخرج «عيص» يطلب الصيد، وسمعت أمه الكلام فقالت ليعقوب: يا بني! اذهب إلى الغنم فاذبح منها شاة، ثم اشْوِهِ، والبس جلده، وقَدِّمْه إلى أبيك، وقل له: أنا ابنك «عيص»، ففعل ذلك «يعقوب».

فلما جاء قال: يا أبتاه! كل، قال: من أنت؟ قال: أنا ابنك «عيص»، قال: فمسَّه، فقال: المَسُّ مَسُّ «عيص» والريح ريح «يعقوب».

قالت أمه: هو ابنك «عيص» فَادْعُ له، قال: قَدِّمْ طعامك، فقدَّمه فأكل منه، ثم قال: ادْنُ مني، فدنا منه، فدعا له أن يجعل في ذريته الأنبياء والملوك، وقام «يعقوب».

وجاء «عيص» فقال: قد جئتك بالصيد الذي أمرتني به، فقال: يا بني! قد سبقك أخوك «يعقوب»، فغضب «عيص» وقال: والله! لأقتلَنَّه.

قال: يا بني! قد بقيت لك دعوة، فَهَلُمَّ أَدْعُ لك بها، فدعا له، فقال:

تكون ذريتك عدداً كثيراً كالتراب، ولا يملكهم أحد غيرهم. وقالت أم «يعقوب» ليعقوب: الحق بخالك فكن عنده خشية أن يقتلك «عيص»، فانطلق إلى خاله، فكان يسري بالليل ويكمن بالنهار، ولذلك سُمِّيَ «إسرائيل»، وهو سَرِيُّ الله، فأتى خاله.

وقال «عيص» أما إذ غلبتني على الدعوى فلا تغلبني على القبر، أن أدفن عند آبائي: «إبراهيم» و«إسحاق»، فقال: لئن فعلت لتدفَنَنَّ معه. ثم إن يعقوب عليه السلام هَوِيَ ابنة خاله ـ وكان له ابنتان ـ فخطب إلى أبيهما الصغرى منهما، فأنكحها إياه على أن يرعى غنمه إلى أجل مسمًّى، فلما انقضى الأجل زَفَّ إليه أختها «ليا».

قال «يعقوب»: إنما أردت «راحيل»، فقال له خاله: إنا لا يُنكَح فينا الصغير قبل الكبير، ولكن ارع لنا أيضاً وانكحها، ففعل.

فلما انقضى الأجل زوَّجه «راحيل» أيضاً، فجمع «يعقوب» بينهما، فذلك قول الله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء، الآية: ٢٣]. يقول: جمع «يعقوب» بين «ليا» و«راحيل» فحملت «ليا» فولدت «يهوذا»، و«روبيل» و«شمعون» وولدت «راحيل»، «يوسف» و«بنيامين»، وماتت «راحيل» في نفاسها ببنيامين، يقول: من وجع النفاس الذي ماتت فيه.

وقطع خال «يعقوب» ليعقوب قطيعاً من الغنم، فأراد الرجوع إلى بيت المقدس، فلما ارتحلوا لم يكن له نفقة، فقالت امرأة «يعقوب» ليوسف: خذ من أصنام أبي لعلنا نستنفق منه فأخذ، وكان الغلامان في حَجْر «يعقوب»، فأحبهما وعطف عليهما ليتمهما من أمهما، وكان أحب الخلق إليه «يوسف» عليه السلام.

فلما قدموا أرض الشام، قال «يعقوب» لراع من الرعاة: إن أتاكم أحد يسألكم: من أنتم؟ فقولوا: نحن ليعقوب عبد «عيص»، فلقيهم «عيص»، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن ليعقوب عبد «عيص»، فكفَّ «عيص» عن «يعقوب».

ونزل «يعقوب» بالشام، فكان همه «يوسف» وأخوه، فحسده إخوته لما رأوا من حب أبيه له.

ورأى «يوسف» في المنام كأن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رآهم

ساجدين له، فحدَّث أباه بهما، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف، الآية: ٥][1].

وأعجب ما حدث في حياة «يعقوب» عليه السلام ما وقع بين «يوسف» وإخوته، ولأهمية ذلك أنزل الله تعالى بصددها سورة كاملة، وسماها «يوسف» عليه السلام لشرف صاحبها وجليل قدره، ورفيع مكانته، وسمو شأنه، وعلو مقامه، وها هي ذي القصة بكاملها كما رواها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية، قال: [فمن ذلك قصة «يوسف بن راحيل» وقد أنزل الله ﷻ في شأنه، وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم، ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ، والآداب، والأمر الحكيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف، الآيات: ١-٣] .

ثم قال ابن كثير: وجملة القول في هذا المقام أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، بلسان عربي فصيح بيِّن واضح جليٍّ، يفهمه كل عاقل ذكي زكي، فهو أشرف كتاب نزل من السماء أنزله أشرف الملائكة، على أشرف الخلق، في أشرف زمان ومكان، بأفصح لغة وأظهر بيان.

فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها، وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه، ودفع الباطل وزيفه ورده، وإن كان في الأوامر والنواهي فأعدل الشرائع، وأوضح المناهج، وأبين حُكْماً، وأعدل حَكَماً، فهو كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام، الآية: ١١٥] ، يعني صدقه في الأخبار، عدلاً في الأوامر والنواهي، ولهذا قال تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف، الآية: ٣] ، أي: بالنسبة إلى ما أوحي إليك فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣١٩ ـ ٣٢١).

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى، الآيتان: ٥٢،٥٣] ، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه، الآيات: ٩٩-١٠١] ، يعني: من أعرض عن هذا القرآن، واتبع غيره من الكتب، فإنه يناله هذا الوعيد، كما قال في الحديث المروي في المسند والترمذي، عن أمير المؤمنين «علي» رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً. «من ابتغى الهدى في غيره أضله الله».

وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا هشام، أنبأنا خالد، عن الشعبي عن جابر: أن «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ، قال: فغضب، وقال: **«أتتهوكون فيها؟ يا بن الخطاب! والذي نفسي بيده! لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده! لو أن «موسى» كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»**، إسناده صحيح.

ورواه أحمد من وجه آخر، عن عمرو فيه: فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده! لو أصبح فيكم «موسى» ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظّي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»**.

وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه في أول سورة «يوسف»، وفي بعضها أن رسول الله ﷺ خطب الناس، فقال في خطبته: **«أيها الناس! إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لي اختصاراً، وقد أتيتكم بها بيضاء نقية، فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون»** أي: المتحيرون، ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفاً حرفاً. ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يُوسُف، الآيات: ٤-٦] .

قد قدمنا أن «يعقوب» كان له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً سميناهم وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم «يوسف» عليه السلام

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره، وباقي إخوته لم يوح إليهم. وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول.

ومن استدل على نبوتهم بقوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [آل عمران، الآية: ٨٤]، وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوي، لأن المراد بالأسباط شعب بني إسرائيل، وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء، والله أعلم.

ومما يؤيد أن «يوسف» عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة أنه ما نص على واحد من إخوته سواه، فدلَّ على ما ذكرناه.

ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد. حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمٰن عن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

انفرد به البخاري فرواه عن عبد الله بن محمد، وعبدة عن عبد الصمد بن عبد الوارث به، وقد ذكرنا طرفة في قصة «إبراهيم» بما أغنى عن إعادته هٰهُنا، ولله الحمد والمنة.

قال المفسرون وغيرهم: رأى «يوسف» عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم كأن أحد عشر كوكباً، وهم إشارة إلى بقية إخوته، والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه، قد سجدوا له فهاله ذلك ـ أي: أفزعه كثيراً ـ، فلما استيقظ قصَّها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية، ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها، فأمره بكتمانها وألا يقصها على إخوته كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل، ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر، وهذا يدل على ما ذكرناه، ولهذا جاء في بعض الآثار: «استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود».

وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وإخوته معاً، وهو غلط منهم[1].

(١) البداية والنهاية (١/ ٢١٨ ـ ٢٢١).

وذكر «الآلوسي» رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يُوسُف، الآية: ٤] ، وهي (جربان، والطارق، والذيال، وقابس، وعمودان، والفيلق، والمصبح، والفزع، ووثاب، وذو الكتفين، والضروح)، فقد روي عن جابر (أن «سناناً» اليهودي جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أخبرني يا محمد! عن النجوم التي رآهن «يوسف»، فسكت، فنزل «جبريل» عليه السلام فأخبره بذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك؟ قال: نعم، فعَدَّ ﷺ ما ذكر، فقال اليهودي: إي والله! إنها لأسماؤها).

وأخرج السهيلي، عن الحارث بن أبي أسامة نحو ذلك، إلا أنه ذكر (النطح) بدل (المصبح)، وأخرج الخبر الأول جماعة المفسرين، وأهل الأخبار، وصححه الحاكم، وقال: إنه على شرط مسلم، وقال أبو زُرْعَة، وابن الجوزي: إنه منكر موضوع[١].

وجاء في الحديث عنه ﷺ: «الرؤيا من الله تعالى والحلم من الشيطان»، وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله تعالى، فليحمد الله تعالى، وليحدِّث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان، فليستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ومن شرها، ولا يذكرها لأحد فإنها لن تضره».

وصحَّ عن جابر أن رسول الله ﷺ، قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه»[٢].

وقال ابن كثير: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يُوسُف، الآية: ٦] أي: كما أراك هذه الرؤيا العظيمة، فإذا كتمتها ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يُوسُف، الآية: ٦] أي: يخصك بأنواع اللطف والرحمة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يُوسُف، الآية: ٦] أي: يفهمك من معاني الكلام، وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [يُوسُف،

(١) انظر تفسير (روح المعاني) (١٢/ ١٧٩).
(٢) روح المعاني (١٢/ ١٨١).

الآية: ٦] أي: بالوحي إليك ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ [يُوسُف، الآية: ٦] أي: بسبك، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ [يُوسُف، الآية: ٦] أي: ينعم عليك، ويحسن إليك بالنبوة، كما أعطاها أباك «يعقوب» وجدك «إسحاق» ووالد جدك «إبراهيم الخليل» ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف، الآية: ٦] كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام، الآية: ١٢٤].

لهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل: أي الناس أكرم؟ قال: «يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»[1].

وتابع ابن كثير قوله: ﴿۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [يُوسُف، الآيات: ٧-١٠].

ينبه تعالى على ما في هذه القصة من الآيات والحكم والدلالات والمواعظ والبينات، ثم ذكر حسد إخوة «يوسف» له على محبة أبيهم له ولأخيه، يعنون شقيقه لأمه «بنيامين» أكثر منهم، وهم عصبة ـ أي: جماعة ـ يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [يُوسُف، الآية: ٨] أي: بتقديمه حبهما علينا، ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل «يوسف» أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها، ليخلو لهم وجه أبيهم، أي: لتمحض محبته لهم، وتتوفر عليهم، وأضمروا التوبة بعد ذلك.

فلما تمالأوا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ [يُوسُف، الآية: ١٠] قال مجاهد: هو «شمعون» وقال السدي: هو «يهوذا»، وقال قتادة ومحمد بن إسحاق: هو أكبرهم «روبيل»: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: المارة من المسافرين ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [يُوسُف، الآية: ١٠] ما

(١) البداية والنهاية (١/ ٢٢١).

تقولون لا محالة، فليكن هذا الذي أقول لكم فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه، فأجمعوا رأيهم على هذا، فعند ذلك[١] ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يُوسُف، الآيات: ١١-١٤].

ومكروا بأبيهم أولاً حين أكدوا له أنهم يريدون لأخيهم «يوسف» الخير، وكان مكرهم بيوسف ثانياً بإضمارهم له الشر، وقنع منهم «يعقوب» أن الذئب لن يصل إلى أخيهم وهو محاط بهم، ولما خرجوا بيوسف، وأصبحوا بعيدين عن أبيهم، كشروا لأخيهم عن أنياب غدرهم وراحوا يضربونه ويهينونه، وهو يضرع إليهم ويستغيث، ولكن لم يكن للرحمة في قلوبهم تجاه أخيهم الأصغر مكان، حتى إذا بلغوا مكان الجب الذي عزموا على جعله فيه، وكان أصحاب القوافل يردونه ليستقوا من مائه، أنزلوه فيه، ثم انقلبوا عائدين إلى أبيهم ومعهم قميص «يوسف» وقد لطخوه بالدم كذباً ليوهموا أباهم أن الذئب قد أكله بينما تركوه عند متاعهم حين خرجوا يستبقون، ولم يثق «يعقوب» بمقالتهم، لما يعلمه من شدة عداوتهم لأخيهم، وحسدهم له، وقال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف، الآية: ١٨].

ثم أقبلت إحدى القوافل، وذهب واردهم إلى الجب ليستقي لهم، ولما أخرج الدلو وجد «يوسف» وقد تعلق بالحبل، فحملوه معهم إلى مصر، وباعوه إلى حاكمها العزيز بثمن زهيد: عشرين، أو اثنين وعشرين، أو أربعين درهماً.

واسم العزيز «إطفير بن روحيب» وامرأته تدعى «راعيل» وقيل: «زليخا»، وقيل: «فكا». وأمر العزيز امرأته أن تحسن إليه ليتسنى لهما الانتفاع به أو اتخاذه ولداً لأنهما لا ينجبان.

كان «يوسف» قد آتاه الله شطر الحسن، ولما وقع بصر امرأة العزيز عليه، تعلق قلبها به، وأحبته حباً جماً، وذات يوم لبست أجمل ثيابها، ونفحت جسدها

(١) البداية والنهاية (١/ ٢٢١، ٢٢٢).

بأفخر عطورها، حتى إذا دخل عليها في حاجة طلبت منه إحضارها، أقدمت على مراودته عن نفسه، لكن عفته منعته من موافقتها، والاستجابة إلى رغبتها، وكانت قد أوصدت أبواب الغرفة بإحكام وأسدلت الستائر، ثم عمدت إلى صنم لها في مخدعها وسترته بثوب، وحين سألها عما دعاها إلى تغطية الصنم أجابت: إنها تستحي من رؤيته لها، فقال لها «يوسف» عليه السلام: أتستحين من خشبة لا تسمع ولا تبصر، ولا أستحي من السميع البصير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ثم عدا إلى الباب يريد الخروج فراراً منها، إلا أنها اتبعته وأمسكت بقميصه من خلفه فتمزق، وعلى باب الغرفة كان زوجها العزيز وابن عم لها قد أوشكا أن يدخلا عليها، ولما سألها زوجها عما يجري وعن سبب ارتباكها، قالت له: لقد راودني عن نفسي وحاول أن يتحرش بي، وما أريد منك إلا سجنه وتعذيبه.

ولم يسكت «يوسف» على اتهامها له فقال: إنها هي التي عمدت إلى مراودتي عن نفسي، ولكنني لم أوافقها لأنني لم أشأ مقابلة إحسانك إليَّ بالإساءة إلى شرفك والاعتداء على أهلك، وتدخل ابن عمها وقال للعزيز: إن كنت تريد الدليل على صدق أحدهما وكذب الآخر فانظر إلى قميصه، فإن كان ممزقاً من الأمام فهذا يعني أنه أراد الاعتداء عليها فدفعته عنها وتكون هي الصادقة، وهو الكاذب، وإن كان القميص ممزقاً من الخلف فهذا يعني أنه أراد الهرب منها فاتبعته وشدت قميصه فمزقته، ويكون هو الصادق وهي الكاذبة، ولما وجد زوجها أن القميص ممزق من الخلف علم أنها كاذبة، إلا أنه تلافياً للفضيحة أمر «يوسف» ألا يحدث أحداً بهذا الأمر وأمرها أن تستغفر لذنبها، ثم زَجَّ بيوسف في السجن. وما كان «يوسف» ليدنس نفسه بالخطيئة وقد جعله الله من عباده المُخْلَصين وهيأه للنبوة ودعوة الناس إلى عبادة الله، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وأدرى بمن يصطفيه نبياً ورسولاً.

وبلغ نساء المدينة ما صنعته امرأة العزيز مع «يوسف» فدعتهن إلى مجلسها، وقدمت لهن الفاكهة، حتى إذا هممن بتقطيع الفاكهة بالسكاكين أمرت «يوسف» بالدخول عليهن، فلما رأينه طاشت عقولهن من فرط حسنه فجرحن أيديهن من الارتباك الذي أصابهن وقلن: ليس هذا بشراً بل هو أحد الملائكة الكرام.

فقالت لهن: لقد لمتنني في حبي له ولم تعذرنني في مراودتي له عن نفسه، وأنا الآن أراكن قطعتن أيديكن وقد نظرتن إليه واحدة، فكيف أحتمل إعراضه وهو أمام ناظري ليلاً ونهاراً؟ ولئن لم يستجب لي فمآله إلى السجن.

وناجى «يوسف» ربه فقال: إن السجن أحب إليه من ركوب المعاصي، وسأله أن يصرف عنه كيد النساء لئلا يقع فيما يقع فيه الجاهلون، واستجاب الله له وصرف عنه كيد الخائنين.

وفي السجن راح «يوسف» يدعو نزلاءه إلى عبادة الله وحده، وكان فيهم ساقي الملك وخبَّازه قد سجنا لذنب قارفاه، فرأى ذات ليلة كل منهما رؤيا فأخبرا «يوسف» بها وطلبا منه تعبيرها، فقد رأى الساقي أنه يعصر العنب، ورأى الخباز، أن على رأسه طبقاً فيه خبز والطير تأكل منه، فقال للساقي: ستعود إلى عملك في سقاية الملك، وقال للخباز: ستصلب وتأكل الطير من رأسك، وما قلته لكما ليس من عندي ولكن علمنيه ربي، وطلب «يوسف» من الذي ظن نجاته أن يخبر الملك أن في السجن مظلوماً سجن بغير جرم أتاه لعله يأمر بتخلية سبيله.

ولم يلبث الملك أن أمر بإخراج الساقي من السجن، وصلب الخباز، وفاقاً لتعبير رؤيا كل منهما كما أخبرهما «يوسف». وأنسى الشيطان الساقي أن يخبر الملك بما أوصاه به «يوسف» فقضى في سجنه عدداً من السنين.

وذات ليلة، رأى الملك رؤيا أفزعته وأقضَّت مضجعه، فأحضر الكهنة والحزاة والعرافين وسألهم أن يعبروها فلم يغنوا عنه شيئاً، فقال الساقي للملك: إني لأعرف من يعبرها لك يا مولاي! قال: ائتني به، قال: إنه سجين، وسأخبره برؤياك ليعبرها لك، وكان الملك قد رأى في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، ولما أخبر الساقي «يوسف» بتلك الرؤيا، قال له: ستأتي عليكم سبع سنين خصبة، فما حصدتم ذروه في سنبله إلا ما تحتاجون إليه لطعامكم، ثم ستأتي عليكم سبع سنين مجدبة ترجعون فيها إلى الطعام الذي ادخرتموه في سني الخصب، ثم يعقبها عام يأتي فيه الغيث والخصب فتعصرون الزيتون والسمسم والأعناب، والقصب وغير ذلك، ويعمكم

الرخاء، فلما سمع الملك ذلك أمر أن يؤتى بيوسف، فأبى «يوسف» مغادرة السجن، وطلب من الرسول الرجوع إلى الملك ليسأل النسوة اللاتي قطعن أيديهن عن سبب ذلك، فجاء الملك بهن وسألهن، فشهدن بعفة «يوسف» ودخوله السجن ظلماً، ولم تستطع امرأة العزيز أن تظل ساكتة، فاعترفت بأنها هي التي راودت «يوسف» عن نفسه وليس هو الذي راودها، ويأبى رب العزة إلا أن يظهر الحق لأنه حرَّم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرماً، وأمر بالقسط والعدل، وهو خير المقسطين.

ولما رأى الملك كمال علم «يوسف» عليه السلام وتمام عقله، وجَوْدة فهمه، وسداد رأيه استخلصه لنفسه، وسلمه مقاليد الأمور في مصر، وحكى الثعلبي أن الملك عزل «إطفير» عن وظيفته وولاها «يوسف»، وقيل: إنه لما مات زوَّجه امرأته «زليخا»، فوجدها عذراء لأن زوجها كان لا يأتي النساء، فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهما «أفراييم» و«منشا» واستوثق له ملك مصر، وعمل فيهم بالعدل، فأحبه الرجال والنساء.

وذكر محمد بن إسحاق: أن صاحب مصر «الوليد بن الريان» أسلم على يدي «يوسف» عليه السلام فالله أعلم، وأنشد بعضهم:

وراء مضيق الخوف متسع الأمنِ ... وأول مفروح به غاية الحُزْنِ
فلا تيأسَنْ فالله ملَّك يوسفاً ... خزائنه بعد الخلاص من السجْنِ

ثم قصد إخوة «يوسف» مصر ليمتاروا لأهلهم، وهم لا يعلمون ما أكرمه الله به، فعرفهم «يوسف» وهم له منكرون أي لم يعرفوه لطول العهد بينه وبينهم. وبعد أن أمَّن لهم حاجتهم سألهم إن كان لهم إخوة آخرون، فقالوا: هناك أخ لنا صغير، قد خلَّفْنَاه عند أبينا، فأمرهم أن يأتوا به وإلا سيمنعهم الميرة، وأمر برد البضاعة التي أتوه بها ليضمن رجوعهم إليه مع أخيهم.

وبعد أن عادوا إلى أبيهم أخبروه أن ولي الأمر في مصر يريد رؤية أخيهم «بنيامين» وإلا حرمهم حاجتهم من الطعام. فطلب «يعقوب» عليه السلام أن يعطوه موثقاً من الله برده إليه إلا أن يحاط بهم، فلما آتوه موثقهم قال: الله على ما نقول وكيل. ثم إنهم صحبوا «بنيامين» وعادوا إلى «يوسف» في مصر، ولما دخلوا عليه

آوى إليه أخاه «بنيامين» وخلا به دونهم وأعلمه أنه أخوه، وروى له قصة ما صنعوه معه، وأوعز إلى بعض عماله أن يدسُّوا سقاية الملك في رحل أخيه «بنيامين» حتى يتسنى له اتهامه بالسرقة، وكان العرف السائد في ذلك الزمان أن يستعبد السارق من قبل صاحب المسروق، ولما حصلوا على ميرتهم وتأهبوا للرحيل نادى المنادي: أيها اللصوص! كيف سرقتم صواع ـ سقاية ـ الملك؟ فبهت الجميع من هذه التهمة وأنكروا أن يكون أحدهم قد فعلها، وأنهم ما جاؤوا ليفسدوا في الأرض وما كانوا سارقين، وحتى تكون المكيدة محبوكة، أمر بتفتيش رحالهم جميعاً، وأخَّر عمداً رحل أخيه الصغير «بنيامين»، ثم استخرج السقاية من رحله أمام أعينهم، ثم أمرهم أن يغادروا البلد محتفظاً ببنيامين لأنه سرق. وأبدوا رغبتهم ليوسف ليأخذ أيًّا منهم مكان «بنيامين» لأنهم عاهدوا أباهم أمام الله تعالى على العودة به، بَيْدَ أنَّ «يوسف» رفض العرض الذي عرضوه عليه لأن مقتضى العدل أن يؤخذ الظالم بجرمه، ولا ينبغي للحاكم العادل أن يعاقب البريء ويترك المذنب حراً طليقاً.

وعندما هموا بالعودة إلى أبيهم امتنع كبيرهم عن مرافقتهم للوعد الذي وعدوا أباهم به، وأمرهم أن يخبروا أباهم بأن ابنه سرق، ولم يكونوا للغيب حافظين، وأنه لن يعود إليه أو بإذنه أو يحكم الله له وهو خير الحاكمين.

ونكأ الجرح الجديد بفراق «بنيامين» على «يعقوب» عليه السلام جرح «يوسف» عليه السلام وباتت دموعه عليهما لا ترقأ حتى فقد بصره من شدة البكاء، وساء حاله كثيراً ولم يعد يريد رؤية بنيه من فرط حزنه، ثم أمرهم أن يذهبوا ويتحسسوا أخبار «يوسف» و«بنيامين» وألَّا يدعوا لليأس سبيلاً إلى نفوسهم، فأخذوا بضاعة رديئة لا يرغب أحد بمثلها، ثم انطلقوا لبيعها في مصر، فلما دخلوا على «يوسف» ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا

وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يُوسُف، الآيات: ٨٨ ـ ٩٣] .

قال يهوذا: أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى «يعقوب» فأخبرته أن «يوسف» أكله الذئب، وأنا أذهب اليوم بالقميص فأخبره بأنه حي، فأُقِرُّ عينه كما أحزنته، فهو كان البشير، ولما ألقي القميص على وجه «يعقوب» وشم ريح «يوسف» ارتد بصيراً، وقال لبنيه: ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون، فطلبوا منه أن يستغفر لهم، فأخر الدعاء لهم إلى السحر، وقيل: إلى ليلة الجمعة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يُوسُف، الآيات: ٩٩-١٠١] .

واختلفوا في تفسير: أبويه، فقال بعضهم: أبوه «يعقوب» عليه السلام وأمه «راحيل»، وقال آخرون: أبوه وخالته «ليا» لأن أمه «راحيل» ماتت في نفاسها، بعد وضعها «بنيامين» والله أعلم.

وذكر ابن كثير في البداية والنهاية: وقال ابن جرير وآخرون: بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلى يومئذ، فلا يعوَّل على أهل الكتاب فيما خالفه، وهذا قوي، والله أعلم، ورفعهما على العرش، أي: أجلسهما معه على سريره ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ﴾ [يُوسُف، الآية: ١٠٠] أي: سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر تعظيماً وتكريماً، وكان هذا مشروعاً لهم، ولم يزل ذلك معمولاً به في سائر الشرائع حتى حرم في مِلَّتنا، أو قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ﴾، أي: هذا تعبير ما كنت قصصته عليك من رؤيتي الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر حين رأيتهم لي ساجدين، وأمرتني بكتمانها، ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ أي: بعد الهم والضيق جعلني حاكماً نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت[1]. والذي يميل إليه القلب أن السجود

(١) البداية والنهاية (١/ ٢٤٠ ـ ٢٤٢).

كان عندهم سجود تحية، وكان معتاداً في ذلك الزمان، ولم يكن سجود عبادة وتقديس، والله أعلم.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يُوسُف، الآية: ١٠٠] أي: البادية، وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل، ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي: فيما كان منهم إليَّ من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يُوسُف، الآية: ١٠٠] أي: إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه ويسَّرها، وسهلها من وجوه لا يهتدي إليها العباد، بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه، وعظيم قدرته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يُوسُف، الآية: ٨٣] بجميع الأمور ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف، الآية: ٨٣] في خلقه وشرعه وقدره. وعند أهل الكتاب أن «يوسف» باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذي كان تحت يده بأموالهم كلها من الذهب والفضة والعقارات والأثاث، وما يملكونه كله حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقَّاء، ثم أطلق لهم أرضهم، وأعتق رقابهم على أن يعملوا، ويكون خمس ما يشتغلون من زرعهم وثمارهم للملك، فصارت سنة أهل مصر بعده.

وحكى الثعلبي أنه كان لا يشبع في تلك السنين حتى لا ينسى الجيعان، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار، قال: فمن ثم اقتدى به الملوك في ذلك.

قلت: وكان أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه لا يشبع بطنه عام الرمادة حتى ذهب الجدب وأتى الخصب.

قال الشافعي: قال رجل من الأعراب لعمر بعدما ذهب عام الرمادة: لقد انجلت عنك وإنك لابن حرة، ثم لما رأى «يوسف» عليه السلام نعمته قد تمت، وشمله قد اجتمع، عرف أن هذه الدار لا يَقَرُّ بها قرار، وأن كل شيء فيها ومن عليها فان، وما بعد التمام إلا النقصان، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه وهو خير المسؤولين أن يتوفاه ـ أي: حين يتوفاه ـ على الإسلام، وأن يلحقه بعباده الصالحين.

وقد ذكر ابن إسحاق، عن أهل الكتاب أن «يعقوب» أقام بديار مصر عند «يوسف» سبع عشرة سنة، ثم توفي عليه السلام وكان قد أوصى إلى «يوسف» عليه السلام أن

يدفن عند أبويه «إبراهيم» و«إسحاق».

قال السدي: فصبر وسيَّره إلى بلاد الشام، فدفنه بالمغارة عند أبيه «إسحاق» وجده «الخليل» عليهما السلام.

ولما مات «يعقوب» عليه السلام بكاه أهل مصر سبعين يوماً، وأمر «يوسف» الأطباء فطيبوه بطيب، ومكث فيه أربعين يوماً، ثم خرج به «يوسف» مع حشد كبير من أكابر مصر وشيوخها ليدفنه عند أهله في مغارة بحيرون، وعملوا له عزاء سبعة أيام.

ولما حضرت «يوسف» عليه الوفاة، أوصى أن يدفن عند آبائه، وبعد موته حنطوه، ووضعوه في تابوت، فكان بمصر حتى أخرجه «موسى» عليه السلام معه فدفنه حيث أراد في وصيته، وكانت وفاته عن مائة وعشر سنوات. رحمهم الله تعالى رحمة واسعة.

obeikandl.com